

## هجرة الريف إلى المدن

لحضرة صاحب السعادة الدكتور محمد حسين هيكل باشا

الريف المصرى الجميل نجبه ونقدسه ، لأنه منبتنا جميعا ومنبت آباؤنا وأجدادنا ، كما أنه منبت حضارات أظلت العالم زمنا فتفى العالم ولا يزال يتغنى بأثارها . وقد رأيت أن أعالج مسألة هجرة هذا الريف الجميل إلى المدن وأبحث أسبابها ونتائجها . فكلنا متفقون على أن هذه الهجرة قد أضرت بلادنا كما أضرت غير مصر من بلاد العالم . فلتوجه بجهودنا إلى منع هذا الضرر ، ولنعمل لعود أهل الريف إلى الريف ، نسد لوطنا خدمة جليلة ، ونرد إلى ريفنا جمالا ونضرة وخصبا ، ما أهبهاها ، وما أكثر ما أضاعت الهجرة إلى المدن منها .

قل من بلاد العالم ما تطرد زيادة السكان فيه بالنسبة التي تطرد بها في مصر . فقد كان عدد سكانها في سنة ١٩١٧ - ١٢,٧١٨,٢٥٥ نسمة فأصبح في سنة ١٩٣٧ ، أى بعد عشرين سنة ١٥,٩١١,٥٢٥ نسمة ، أى أنه زاد في هذه الفترة الوجيزة بنسبة خمسة وعشرين في المائة . وقد كانت الزيادة مطردة في المدن وفي الأرياف جميعا . لكن نسبتها في المدن كانت أعلى من نسبتها في الأرياف بصورة محسوسة . فقد زادت في المدن من ١,٨٨٢,٥٨١ نسمة إلى ٢,٩٤٢,٦٩٥ نسمة ، أى بنسبة ٥٦ في المائة . أما في الأرياف فزادت من ١٠,٨٣٥,٦٦٦ نسمة إلى ١٢,٩٦٨,٨٣٠ نسمة ، أى بنسبة ١٩ في المائة . ولقد كانت القاهرة أكثر مدن مصر ازديادا في عدد السكان . كانت في سنة ١٩١٧ تعد ٧٩٠,٩٢٩ نسمة فزادت في سنة ١٩٣٩ إلى ١,٣١٢,١٠٥ نسمة ، أى بنسبة ٦٦ في المائة . هذه الفوارق الكبيرة في نسبة الزيادة ما بين ١٩ في المائة للأرياف إلى ٥٦ في المائة لمجموع المدن و ٦٦ في المائة للقاهرة تستوقف النظر وتشهد بأن هجرة الريف إلى المدن مشكلة اجتماعية جديرة بأن نصل من بحثها إلى علاج ناجع لها .

ويجب علىّ قبل أن أفكر في العلاج أن أبحث أسباب هذه الهجرة . ومن الحق علىّ أن أذكر أن جانبا من هذه الهجرة طبعى لم يكن منه بد ، بل هو قد كان ضرورة لازمة لإصلاح استدعاء . فالصناعة في مصر قد تقدّمت في العشرين السنة الأخيرة تقدّما محسوسا . وقد نشأت أكثر الصناعات في المدن ، فاقضى ذلك انتقال عدد كبير من أهل الريف الذين اشتغلوا

في هذه الصناعات إلى العواصم . ونظرة في الإحصاء تدل على ذلك دلالة واضحة . صحيح إن صناعات كبيرة قد نشأت في غير العواصم فضاءت سكان البلاد الريفية التي نشأت فيها . فصناعة الغزل والنسيج قد ضاعت سكان لمحلة الكبرى وغيرها من البلديات التي استخدمت فيها . وصناعة السكر قد ضاعت سكان المراكز التي يصنع السكر فيها ، وكلها في الريف .

لكن المدن والعواصم قد فارت من حيث هجرة اليد العاملة من الزراعة إلى الصناعة بتصيب الأوسد . وهذه الهجرة ضرورة قضى بها تطوّر إصلاحى لم يكن منه بد .

يضاف إلى نشوء الصناعات انتشار التعليم ومعاهده ، وما أدى ذلك إليه من ازدياد عدد السكان في المراكز التي أنشئت فيها هذه المعاهد . وقد فارت المدن من ذلك بحظ عظيم . ولو أننا قارنا بين عدد المعاهد والمتحقين بها في سنة ١٩١٧ وعددنا وعدد هؤلاء المتحقين بها في سنة ١٩٣٧ لتبيننا أن جانباً ، قد لا يكون عظيماً ، من هجرة الريف إلى المدن قد نشأ عن هذا الإصلاح في التعليم إصلاحاً لم يكن منه بد .

لكننا نستطيع أن نرّد سبب الهجرة كلها إلى هذه العوامل الطبيعية التي قضى بها التطوّر الاقتصادى والاجتماعى في مصر . بل لعل هذه الهجرة الطبيعية لا ترتفع إلى أكثر من عشرة في المائة بالنسبة إلى عدد زيادة السكان في المدن . فإذا قدرنا أن هناك زيادة طبيعية أخرى سببها تزايد النسل خلال هذه السنوات العشرين تقدر بعشرين في المائة — وهذا تقدير قد لا يخلو من المبالغة — تبيننا أن نسبة وعشرين في المائة من زيادة عدد السكان في المدن ترجع إلى أسباب لا علاقة لها بالتطور الاقتصادى والاجتماعى ، ولا علاقة لها بالزيادة الطبيعية في التناسل . وهذه النسبة ترتفع بالزيادة إلى ما يزيد على نصف المليون ، وهى الزيادة التي سببت مشكلة الهجرة من الريف إلى المدن . فما أسبابها ، وما علاجها ؟

وليس من اليسير أن أستقصى أسباب مشكلة اجتماعية كهذه المشكلة في بحث وجيز كالذى أعرضه في هذا المقال . فحسبى أن أشير إلى أهم هذه الأسباب ، وأهمها في رأى قسوة الحياة في الريف واعتقاد كثيرين أن سبل العيش في المدن أكثر يسراً ورخاء . قد يكون هذا الاعتقاد غير صحيح . ولا أدل على فسادة مما نسمعه من الحديث عن العطلة بين المتعلمين وغير المتعلمين ، فهذه العطلة لا علاقة لها بالريف البتة ، وإنما علاقتها بالمدن . لكن الذين يتيسر لهم العمل بالمدن يجدون الحياة أكثر رخاء ، فإذا زارهم أهلهم أو زاروا أهلهم تمنى كثيرون أن يكونوا مثلهم ، فإذا أنس أحدهم في نفسه أنه يستطيع أن يجد إلى عيش المدينة الوسيلة هجر الريف ولم يتم به .

هذا هو السبب العام ، وهذا طبيعى في الإنسان ، فكل واحد منا مدفوع بفطرته إلى التماس أحسن أنواع الحياة ، بأقل مجهود ممكن ، وحياة الفلاح ليست أحسن أنواع

الحياة ، بل لعلها أسوأها . ومجهود الفلاح ليس أقل مجهود ، بل لعله أشقاه ، فاذا أضيف إلى ذلك أن إنتاج الفلاح في الظروف الحاضرة قليل ضئيل تين لنا السبب الأساسى لهجرة الريف .

ما هى العوامل التى أدت إلى هذا السبب العام ؟ لماذا فقد الريف ما ألتف من قبل من رضاء . ؟ ولماذا أصبحت الحياة فيه قاسية ومرغوبا لذلك عنها ؟

هذه العوامل كثيرة ، فى مقدمتها هجرة الملاك من الريف إلى المدن ، هؤلاء الملاك الذين كانوا فى الماضى ، وكان آباؤهم من قبلهم ، لا يعدلون بالعناية بأرضهم شيئا ، لأنهم كانوا يجدون فى هذه العناية السعادة والجاه والرخاء ، وقد وجدوا فى زحف المدن ما أغراهم بالانتقال إليها ، وبخاصة بعد إذ خيل إليهم أنهم يستطيعون أن يستعوضوا ما ينقص من غلات أرضهم لانصرافهم عنها بزيادة مساحة هذه الأرض بما يشترونه بالدين ، أو بما يستأجرونه ويؤجرونه لغيرهم من أملاك ذوى الأملاك الواسعة من الملاك المقيمين أنفسهم بالمدن ، وقد رأى هؤلاء الأعيان من أهل الريف أخيرا ما جر ذلك عليهم من ضرر ، وهم يمتنون اليوم لو يستطيعون العودة إلى بلادهم ، لكنهم ألفوا حياة المدن فلم يصبح فى مقدورهم أن يتركوها . كما أنهم أصبحوا مشتبكين مع البنوك والدائنين ، مضطرين بحكم هذا الاشتباك إلى أن يقضوا فى المدن وقتا طويلا يحول بينهم وبين العودة إلى الريف .

ومن هذه العوامل كذلك أن الإصلاح يسير فى الريف بخطى أبطأ بكثير عما يسير فى المدن ، ولذلك يجد الناس من متعة العيش فى المدن مالا يجدون فى الريف ، ولو أن الحكومة المصرية فى وزاراتها المتعاقبة أعارت الريف عناية تعدل عناية بالمدن لخفف ذلك من مشكلة الهجرة . أنا أعلم أن ذلك الأمر غير يسير ، لأنه يقتضى مجهودا ضخما ونفقات طائلة يقتضى ملايين كثيرة جدا . لكننى أعتقد مع ذلك أنه جوهرى فى حياة البلاد ، جوهرى فى تقدمها الاقتصادى ، وأنه لذلك ثمرة فائدة كبيرة على رأس المال الذى ينفق فيه .

ولست أبالغ حين أذكر أن السير فى إصلاح الريف يقتضى ملايين كثيرة جدا ، وحسبى أن أذكر أن هذا الإصلاح يتناول إنشاء الطرق التى تقرب البلاد بعضها من بعض ، وتقربها من المدن ، وأنه يقتضى إصلاحا صحيا واسع النطاق ، وإصلاحا تعليميا واسع النطاق كذلك ، حسبى أن أذكر ذلك لتتدر هذه الملايين . هذا إلى ما يجب من تنظيم القرى تنظيما جديدا يتفق وهذه النهضة العمرانية التى تهتر بها البلاد . مع ذلك أكرر أن ما يتم فى الريف من الإصلاح يرد من الثمرات ما يربى على أية فائدة تدفع عن رأس المال الذى ينفق فى هذه الأغراض .

وإذا وجب إنشاء الطرق ووجب الإصلاح الصحى والإصلاح التعليمى لرفع مستوى المعيشة فى القرية بما يجب إلى الناس الإقامة بها والعود إليها ، فإن زيادة الإنتاج الزراعى فى مقدّمة ما تجب العناية به لمنع هجرة الريف إلى المدن . لقد ذكرت أن أهم أسباب هجرة الريف قسوة الحياة فيه واعتقاد كثيرين أن سبل العيش فى المدن أكثر يسرا ورخاء . هذا اعتقاد سائد اليوم فى الأوساط جميعا . سائد فى المدن وفى الريف على السواء . وليس بين الناس من لا يذكر أن إيراد الأراضى الزراعية لا يغل أكثر من خمسة فى المائة ، على حين يغل إيراد المهارات بالمدن ثمانية فى المائة أو أكثر ، وتغل الصناعة أو التجارة أضعاف ذلك . مادام هذا الاعتقاد سائدا فتكون هجرة الريف نتيجة محتومة له ، وستقاسى البلاد مع الوقت من نتائج هذه الهجرة أضعاف ما تقاسى اليوم . فإذا أردنا منع تيار الهجرة وجب أن يؤمن الناس بأن الإنتاج الزراعى يوازى غيره من صور الإنتاج . بذلك يصبح توزيع السكان رهنا بالكفايات فى الأعمال المختلفة ، ويصبح التفوق فى الزراعة كالتفوق فى الصناعة أو فى غيرها من أسباب السعى فى الحياة جديرا بأن ينال ثمرة توازى ثمرة العمل فى غير الزراعة من أسباب السعى .

هذه عبارات وجيزة عما أعتقد أهم الأسباب لهجرة الريف إلى المدن وأنجع الوسائل لمعالجة هذه الأسباب . وليس يتسع المقام للتفصيل ، ولا لتناول سواها من أسباب الهجرة . على أنى أحسب القارئ قد رأى فى هذه الإلمامات السريعة مبلغ ما تتصل بهجرة الريف بالمشاكل الاقتصادية والاجتماعية المختلفة فى مصر . فهى تتصل بمشكلة العطللة ، وتتصل بمشكلة الحال الصحية وما يترتب على إصلاحها من زيادة المقدرة على الإنتاج ، وتتصل بمشكلة التعليم وسياسته . وتتصل بالحياة الصناعية الناشئة فى البلاد ، وتتصل بالثروة القومية فى صميمها . وهذا الاتصال يشهد بأهمية هذه المشكلة الاجتماعية ، كما يدل على أن معالجتها تتناول معالجة كثير من المسائل التى تستعجل العلاج فى هذه البلاد .

وإذا كان لهذا الاتصال بين هجرة الريف والوان الإصلاح المختلفة دلالة أو مغزى فدلالته واضحة على أن الإصلاح فى البلاد يجب أن توضع له سياسة عامة مدروسة مبحوثة ، ويجب ألا يسود فيه الارتجال ، ويجب أن ينظر فيه إلى المستقبل بدقة تزيد على النظر إلى الحاضر . فالإصلاح الاجتماعى كالغراس . الشجرة التى نغرسها اليوم لا تنمر غدا ، بل تمر بعد أشهر ، أو بعد سنين . وكما يجب على من يغرس الشجرة أن يعرف منذ اللحظة الأولى إن كانت شجرة مشمرة أو كانت من أشجار الأخشاب ، وكما يجب أن يعرف مباح ما تستنزف من قوة الأرض ليعالجها بنوع بذاته من السباد وأن يتقدر وسائل تعهدها أثناء نموها ، كذلك يجب على من ينهض بالإصلاح أن يعرف مداه وأن يتقدر نتائجه وأن يكون مابا بأسباب النهوض عليه وتعاهده .